العسكريون في الكفاح الوطني

هناك أمر يغفله الكثيرون عند التحدث أو الكتابة عن الجيش السوري ودوره في الكفاح للخلاص من الاحتلال الفرنسي. فاستقلال كل من سورية ولبنان كان دوما معترفا به عالميا من الناحية النظرية، على الأقل، وانما وضع هذان القطران تحت الانتداب الفرنسي من قبل عصبة الأمم بهدف مساعدتهما على تأسيس نظام وبناء مؤسسات حكومية لهما والأخذ بيدهما لادخالهما في محفل الدول المستقلة من الاستعمار في تلك الأيام، وهو القديم الذي كان متحكما في عصبة الأمم التي انتدبته على بلادنا، كالجديد الذي تتزعمه أميركا التي جعلت حاليا من مجلس الأمن في الأمم المتحدة مكتبا من مكاتب وزارة خارجيتها فلا يتحرك الا برضاها وأمرها وبالتالي تحكمت بالنظام العالمي وأوصلت دول العالم المتخلفة والفقيرة الى أحوال هي أسوأ من المستعمرات القديمة وهي نظريا مستقلة. نقول أن ذلك الاستعمار القديم جعل من الانتداب من الناحية العملية استعمارا يتولى به الكبيرة والصغيرة في الأقطار الواقعة تحت حكمه ويعمل على تأجيل استقلالها الى مالانهاية له من الدهور. فكان مستشاروه في كل مكان يحركون الأمور بحسب منافعهم وفي إطار المخططات الاستعمارية لدولتهم المنتدبة.

ولقد انتهى القطران السوري واللبناني في عهد الانتداب الى كيانين منفصلين الواحد عن الآخر الا في مجالات جعلتها سلطات الانتداب الفرنسي تضم ما سمته المصالح المشتركة بين سورية ولبنان وأتبعت هذه المصالح بها مباشرة بعد أن فصلتها عن أصحابها السوريين واللبنانيين، وعينت لها ادارة فرنسية لا تأتمر الا بأوامر المفوض السامي الفرنسي المشرف على الانتداب. وهذه المصالح كانت تضم جيشي سورية ولبنان والجمارك واصدار النقد وصناعة التبغ وما شابه من الأمور المشتركة بين القطرين التي يمكن توحيدها بيد الفرنسيين لضمان أمن الاحتلال وتغطية نفقاته: كان جيشا البلدين موحدين بما كانوا يسمونه القطعات الخاصة "تروب سبسيال" التي تتفرع فيها القيادة الفرنسية بعناصرها في جميع الرتب بحجة التدريب، وكانت الجمارك وادارة التبغ تغطي نفقات الاحتلال. وما كان في النتيجة هنالك من حدود وحواجز تمنع التنقل بحرية تامة بين القطرين.

كان الفرنسيون يتولون بطبيعة الحال مهمة انتقاء كادرات القطعات الخاصة من ضباط وصف ضباط. وقد أسسوا كلية عسكرية لتخريج الضباط في دمشق في البدء ثم نقلوها الى حمص في بدايات الثلاثينات. وقد انخرط كثير من خريجي المعاهد العسكرية العثمانية في الخدمات المسلحة وخاصة في الدرك السوري اللبناني وفي القطعات الخاصة مثل عبدالله عطفة وحسني الزعيم والنجم اللامع في الثورات العربية في القرن العشرين البطل فوزي القاوقجي الذي خرج على المستعمرين مع السرية

التي كان يقودها في حماة والتحق بالثورة السورية الكبرى في عام 1924 وفي الثلاثينات من هذا القرن، وعلى الأخص بعد المعاهدة السورية الفرنسية لعام 1936، اتسع الوعي في صفوف عسكريي القطعات الخاصة واشتد التيار الوطني بمختلف اتجاهاته بين أولئك العسكريين. وقامت حلقات وخلايا متفرقة في صفوف الضباط العرب هنا وهناك في مختلف المواقع في سوريا ولبنان. أذكر على سبيل المثال أسماء بعض من انتموا الى تلك التنظيمات. كان مثلا أديب الشيشكلي مع أخيه صلاح ينشطان في شرق وشمال سورية، في الجزيرة ودير الزور، وقد انضم اليهما محمد صفا وهو من جنوب لبنان والمرحوم فتحي الأوبري. وقد حاول هذان الأخيران، مثلي أنا ورفيقي صبحي العقيلي، الالتحاق بالثورة العراقية ضد الانجليز ولكن الثورة أخمدت قبل وصولهما للانخراط في صفوفها. وكان كل من مأمون بيطار، الذي استشهد فيما بعد في ساحات جهاد فلسطين أمام مشمار عمك، وصلاح البزري وأنا عفيف البزري وسري الرباط وابراهيم أتاسي وشقيقه فتحي أتاسي، الشهيد في معركة مشمار هايردن، وعدنان المالكي ومحمد الحسيني، وهو من جنوب لبنان، وشوكت شقير وغيرهم بالعشرات، أقول كان هؤلاء الضباط في مواقعهم المختلفة المتغيرة على العموم: من السويداء فدمشق فبيروت فطرابلس فحمص فتل كلخ فاللاذقية فحلب الخ.. ينشطون بين رفاقهم لنشر الوعي والاستعداد للالتحاق بسلطات الوطن في بيروت ودمشق عندما يأتي الظرف ويحين الأوان. وقد أتى هؤلاء الضباط بمعظمهم من الثانويات التي كانت تشكل قواعد المقاومة للاحتلال الفرنسي وقواعد انطلاق المظاهرات ضد هذا الاحتلال .

* * *